عالَم مِنَ الأسْرار

تأليف: ماري الخوري فاضل
رسم: دينا خليفة

مَرْحَبًا! أنا سارَة وسَوْفَ أُطْلِعُكُمْ اليَوْمَ عَلى سِرٍّ ...
أنا أُحِبُّ الأسْرارَ كَثيرًا، كُلُّ ما لا أعْرِفُهُ يَسْتَهْويني، وحَيْثُما أتَوجَّهُ أجدُ أسْرارًا بِانْتِظاري لِاكْتِشافِها! ولَكِنَّ الأُسْبوعَ الماضي اكْتَشَفْتُ أنَّهُ لَيْسَتْ كُلُّ الأسْرارِ تَسْتَحِقُّ الاهْتِمامَ بِمَعْرِفَتِها...

في يَوْمٍ، كانَتْ نورٌ ودانا تَتَكَلَّمانِ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ في المَلْعَبِ وتَتَهامَسان. اقْتَرَبْتُ مِنْهُما لِأكْتَشِفَ ما الحِكايَةُ، ولَكِنْ عِنْدَما أصْبَحْتُ قَريبَةً، غَيَّرَتْ نورٌ ودانا المَوْضوعَ وعَرَضَتا عَليَّ الذَّهابَ إلى المَكْتَبَةِ لِاسْتِعارَةِ الكُتُبِ. وبِما أنَّني لَمْ أُرِدْ أنْ تَعْتَبِرَني صَديقَتيَّ فَضولِيَّةً، ابْتَعَدْتُ عَنْ نورٍ ودانا، من دونِ أنْ أكْتَشِفَ السِّرَّ الّذي كانَتا تَتَكَلّمانِ عَنْهُ، قائِلَةً بِأنّني سَأَلْحَقُ بِهِما.

في البَيْتِ، كانَتْ أُخْتي الكُبْرى تَتَكَلَّمُ بواسِطَةِ الهاتِفِ. جَلَسْتُ بِجانِبِها لِأَسْمَعَ ما تقولُ. ما هِيَ إلّا دَقيقةٌ حَتّى انْسَحَبَتْ أُخْتي إلى غُرْفَتِها وأَقْفَلَتِ البابَ خَلْفَها.

«أهاااااا... يوجَدُ سِرٌّ بِالمَوْضوعِ!» قُلْتُ في نَفْسي .

اقْتَرَبْتُ مِنْ بابِ غُرْفَتِها لِأَسْتَرِقَ النَّظَرَ وأَسْتَمِعَ لِبَقِيَّةِ الحَديثِ، ولَكِنَّ رِجلي زَلَّتْ وأَحْدَثَتْ ضَجَّةً عَلى البابِ. فَتَحَتْ أُخْتي البابَ وقالَتْ مُمازِحَةً :

«مَنِ الطّارِقُ؟ هَلْ يَطْرُقُ أَحَدٌ بابي؟ أم أنّ أَحَدَهُمْ لا يَحْتَرِمُ خُصوصِيَّتي مُجَدَّدًا!».

– لا لا ! أنا كُنْتُ مارّةً مِنْ هُنا بِالصُّدْفَةِ وتَعَثَّرْتُ بِالسِّجّادَةِ فَقَطْ... طَبْعًا أنا لا أَقْصِدُ عَدَمَ احْتِرامِ غُرْفَتِكِ وخُصوصِيَّتِكِ ! تَعْرِفينَ أَنّني لا أَقْصِدُ ذلِكَ أَبَدًا!....

«طَبْعًا أَعْرِفُ ذَلِكَ!» ضَحِكَتْ أُخْتي وأَقْفَلَتِ البابَ .

أوفْ ... كادَتْ تُمْسِكُ بي! يَجِبُ أَلّا أعودَ لِمِثْلِ هَكَذا فِعْلٍ مَرَّةً أُخْرى! فَأُخْتي تَحْرِصُ دُوْمًا على احْتِرامِ أَغْراضي، غُرْفَتي وأُموري، وأنا يَجِبُ أَنْ أُعامِلَها بِالمِثْلِ طَبْعًا ... ابْتَعَدْتُ عَنِ البابِ ويا لِلأَسَفِ، لَمْ أَكْتَشِفْ هذا السِّرَّ أَيْضًا...

عِنْدَما كنت أنا وأُمّي في طريقِنا لِزِيارَةِ جَدّي وجَدَّتي، لَمْ تَنْتَبِهْ أُمّي لِحُفْرَةٍ صَغيرَةٍ في الطَّريقِ، فسقَطَ إطارُ السَّيّارةِ فيها وأحْدَثَ صَوْتًا قَوِيًّا.

قُلْتُ لِأُمّي : «لا تَهْتَمّي يا أُمّي، لَنْ أُخْبِرَ أبي أنّنا وقَعْنا في هذِهِ الحُفْرَةِ، سَيَكونُ هذا سِرَّنا أنْتِ وأنا!».

– سارَة يا ابْنَتي، أفْرادُ العائِلَةِ لا يُخْفونَ أسْرارًا عَنْ بَعْضِهِمْ بَلْ بِالعَكْسِ، نَحْنُ بِحاجَةٍ لِإِخْبارِ والِدِكِ بِهَذِهِ الحادِثَةِ لِيَتَأكَّدَ أنَّ إطارَ السَّيّارَةِ ما زالَ صالِحًا وأنّنا لَسْنا بِخَطَرٍ أثْناءَ القِيادَةِ!

لِلْأسَفِ، حتّى عِنْدَما أُحاوِلُ أنْ أخْتَرِعَ سِرًّا لا أنْجَحُ بِذَلِكَ!

وصَلْنا إلى بَيْتِ جَدّي، فَاسْتَقْبَلَتْنا جَدّتي بِالقُبُلاتِ: «أهْلًا وسَهْلًا بِصَغيرَتي العَزيزَةِ، لَقَدِ اشْتَقْنا إلَيْكِ كَثيرًا! كَيْفَ حالُ المَدْرَسَةِ؟ ما هذا؟ أنْتِ نَحيلَةٌ جِدًّا! ألا تَأْكُلينَ طَعامَكِ كُلَّهُ كُلَّ يَوْمٍ؟ تَعالَيْ، لَقَدْ أعْدَدْتُ الحَلْوى الّتي تُحبّينَ ووضَعْتُ شَرابَ التّوتِ في البَرّادِ لِحينِ وُصولِكُما، سَوْفَ تَتَلَذَّذينَ بِما حَضّرْتُ...».

جَلَسْتُ إلى مائِدَةِ المَطْبَخِ مَعَ جَدّي الّذي أخَذَ يُمْطِرُني بِالأسْئِلَةِ عَنْ مَدْرَسَتي، عَنْ أُخْتي، عَنْ أبي وعَنْ مَشاريعي ... فَجْأةً رَأيْتُ جَدَّتي تُعْطي أُمّي كيسًا كَبيرًا فيهِ شَيْءٌ لَمْ أسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ، وفي الحالِ نَزَلَتْ أُمّي حاملةً الكيسَ إلى السَّيّارَةِ.

قَفَزْتُ مِنْ كُرْسِيّي وذَهَبْتُ إلى جَدَّتي لِأسْتَطْلِعَ المَوْضوعَ، فَحاسّتي السّادِسَةُ قَدْ أنْبَأتْني بِأنَّ في الكيسِ سِرًّا !

– جَدَّتي، أَلَسْتُ أنا حَفيدَتَكِ المُدَلَّلَةَ الّتي تُفَضّلينَ؟ قولي لي، ماذا يوجَدُ في هذا الكيسِ الكَبيرِ الّذي أخَذَتْهُ أمّي إلى السَّيّارَةِ؟

ضَحِكَتْ جَدَّتي كَثيرًا وقالَتْ: «عَرَفْتُ أنَّ أمْرَ الكيسِ سَوْفَ لَنْ يَمُرَّ بِدونِ أنْ تَنْتَبِهي! ولَكِنْ ما أسْتَطيعُ قَوْلَهُ الآنَ هُو أنّ في الكيسِ أسْرارًا ! أمّا هذِهِ الأسْرارُ فَسَوْفَ تَكْتَشِفينَها لاحِقًا! فَكوني صَبورَةً يا صَغيرَتي، فَما كُلُّ الأُمورِ نَعْرِفُها في الحالِ ...».

لِلْأسَفِ! حتّى جَدَّتي اللّطيفَةُ لَمْ تُطْلِعْني عَلى سِرِّها ! وأنا لَمْ أسْألْ أُمّي في طَريقِ العَوْدَةِ إلى البَيْتِ لِأنّني أعْرِفُ الجوابَ مُسْبَقًا: «الفُضولُ عادَةٌ سَيِّئَةٌ يا سارَة ...».

وصَلْنا إلى المَنْزِلِ، وما أنْ فَتَحَتْ أُمّي البابَ حتّى عَلَتِ الموسيقى وتَطايَرَتْ أوْراقٌ بَرّاقَةٌ مُلَوّنَةٌ في كُلِّ مَكانٍ!

– عيدُ ميلادٍ سَعيدٍ يا سارَة!

وهُناك كانَتْ دانا ونورُ وبَعْضُ الأصْدِقاءِ يَرْتدونَ قُبّعاتٍ مَخْروطِيَّةَ الشَّكْلِ ويَنْفُخونَ في زَماميرَ مُلَوّنَةٍ. أُخْتي أيْضًا كانَتْ هُناكَ تَحْمِلُ كَعْكَةَ العيدِ الجَميلَةَ وقَدْ كُتِبَ عَلَيْها: عيدٌ سَعيدٌ يا سارَة.

– إنّه عيدُ مَوْلِدي! كَيْفَ لَمْ أذْكُرْ ذَلِكَ! استَقْبَلَني الجَميعُ بِالقُبَلِ والتَّهاني والأُمْنِيّاتِ الجَميلَةِ، وعِنْدَها بَدَأتْ كُلُّ الأسْرارِ تتكشَّفُ... فَقَدْ أخْبَرَتْني دانا ونور أنَّهما كانَتا تَتَهامَسانِ في المَدْرَسَةِ لِتَتَّفِقا على مَوْعِدِ الحُضورِ إلى مَنْزِلي. أمّا سِرُّ أُخْتي في حَديثِها عَلى الهاتِفِ فَلَمْ يَكُنْ إلّا لِتَنْسيقِ أمْرِ الكَعْكَةِ الجَميلَةِ ووُصولِها في الوقْتِ المُناسِبِ إلى البَيْتِ. بَقِيَ كيسُ جَدَّتي الكَبيرُ، فَجَدَّتي أخْبَرَتْني أنَّ في الكيسِ أسْرارًا، وبِما أنّني أصْبَحْتُ أعْرِفُ الآنَ أنَّهُ عيدُ مَوْلدي، تَوقَّعْتُ أنْ يَكونَ في الكيسِ هَدِيَّةٌ من جَدّي وجَدّتي. ولَكِنَّ أمّي لَمْ تُحْضِرْ مَعَها الكيسَ عِنْدَما صَعَدْنا إلى البَيْتِ.

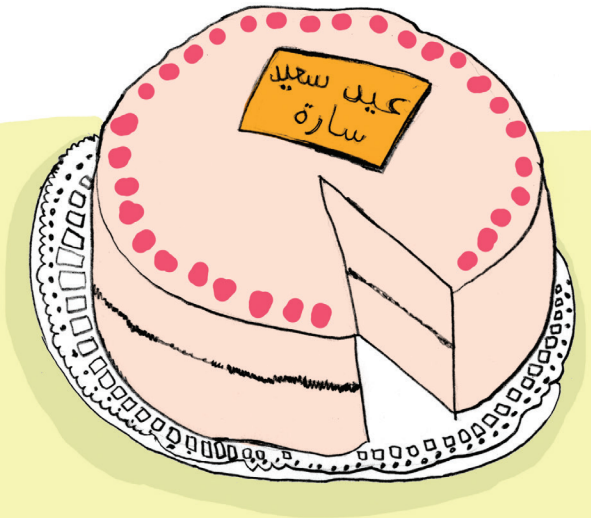

احْتَفَلْنا جميعًا، رِفاقي، أهْلي وأنا وأمْضَيْنا وقْتًا مُمْتِعًا. أكَلْنا الحَلْوى اللّذيذَةَ ولَعِبْنا بِالهَدايا الجَديدَةِ الّتي أحْضَروها. ثُمَّ حانَ وقْتُ الوداعِ، فَرافَقْتُ ضُيوفي إلى البابِ وشَكَرْتُهُمْ عَلى المُفاجَأةِ اللّطيفَةِ ومُشارَكَتِهِمْ بِجَعْلِ عيدِ ميلادي مُمَيَّزًا.

دَخَلْتُ إلى غُرْفَتي لِأُحَضِّرَ ملابِسَ النَّوْمِ قَبْلَ أنْ أسْتَحِمَّ فإذا بي أجِدُهُ هُناك... الكيسُ! كيسُ جَدّتي كانَ عَلى سَريري.

أسْرَعْتُ إلى الكيسِ ونَظَرْتُ في داخِلِهِ فَوجَدْتُ عُلْبَةً كَبيرَةً مُلَوّنَةً. أخْرَجْتُ العُلْبَةَ وفَتَحْتُها فَوجَدْتُ فيها عُلْبَةً أصْغَرَ حَجْمًا وإلى جانِبِها ورَقَةٌ كُتِبَ عَلَيْها: هل تَسْتَطيعُ الحَيَواناتُ التَّحَدُّثَ في ما بَيْنَها؟

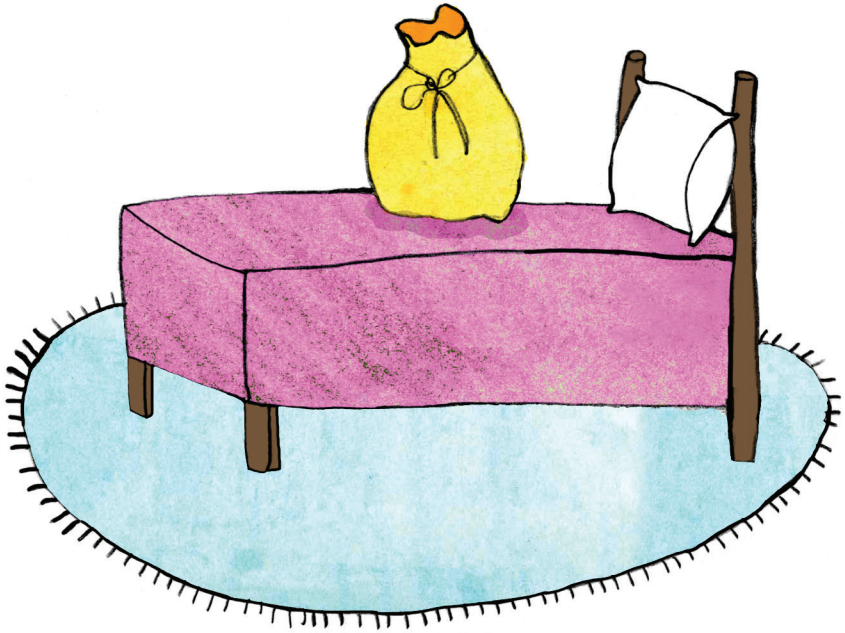

يا لِلْعَجَبِ! لد أعْرِفُ جَوابًا لِهذا السُّؤالِ. وضَعْتُهُ جانِبًا وفَتَحْتُ العُلْبَةَ الثّانِيَةَ لِأجِدَ فيها عُلْبَةً أصْغَرَ حَجْمًا وإلى جانِبِها ورَقَةٌ أُخْرى كُتِبَ عَلَيْها: ما هيَ أعْلى قِمَّةٍ في العالَمِ؟ أهاااا، أعْرِفُ جَوابَ هذا السُّؤالِ. وضَعْتُهُ جانِبًا وفَتَحْتُ العُلْبَةَ الجَديدَةَ لِأجِدَ عُلْبَةً أصْغَرَ وإلى جانِبِها سُؤالٌ آخَرُ: كَيْفَ تَتَشَكَّلُ الأمْواجُ؟ وأنا لَمْ أعْرِفِ الإجابَةَ عَنْ هذا السُّؤالِ.

فَتَحْتُ العُلْبَةَ الجَديدَةَ وكانَتْ هِيَ الأخيرَةَ، فَوجَدْتُ فيها لائِحَةً بِأسْئِلَةٍ كَثيرَةٍ : لِماذا لِلْأسْماكِ زَعانِفُ؟ ما هُو أكْبَرُ مَخْلوقٍ عَلى وجْهِ الأرْض؟ ما هِيَ مَجَرَّةُ دَرْبِ التَّبّانَةِ؟ ما هُو الذَّهَبُ الأسْودُ؟ هَلْ تَسيرُ جَميعُ القِطاراتِ على سِكَكٍ حَديدِيَّةٍ؟ كَيْفَ تَصْطادُ الخَفافيشُ في الظَّلامِ؟ هَلْ عَلَيْنا أنْ نَنامَ كُلَّ يَومٍ؟ وأسْئِلَةٌ أُخْرى مُحَيِّرَةٌ كُتِبَ بَعْدَها رِسالَةٌ مِنْ جَدَّتي:

عَزيزَتي سارَة،

أتَمنّى لَكِ عيدَ ميلادٍ سعيدًا يا صَغيرَتي، وحَياةً مَليئَةً بِالنّجاحاتِ والصِّحَّةِ! لد بُدَّ أنَّكِ قَدْ وجَدْتِ الآنَ داخِلَ هذِهِ العُلَبِ أسْئِلَةً كَثيرَةً سَوْفَ تُثيرُ حُشْرِيَّتَكِ، رُبَّما تَعْرِفينَ أجْوِبَةَ بَعْضِ هَذِهِ الأسْئِلَةِ ولَكِنْ تَجْهَلينَ أجْوِبَةَ البَعْضِ الآخَرِ. ولِكَيْ نُسَهِّلَ عَلَيْكِ اكْتِشافَ حُلولٍ لِكُلِّ هَذِهِ التّساؤلاتِ، قَرَّرْتُ أنا وجَدُّكِ أنْ نَهْدِيَكِ مَوْسوعَةً عِلْمِيَّةً تَتَضَمَّنُ مَعْلوماتٍ عامَّةً سَوْفَ تُعطيكِ إيّاها أُمُّكِ بَعْدَ أنْ تُعْطِيَكِ هذِهِ العُلَبَ.

ابْحَثي في هذِهِ المَوْسوعَةِ عَنْ كُلِّ ما يَهُمُّكِ ووَسِّعي آفاقَ عِلْمِكِ بِمَعْلوماتِها، واعْرِفي يا صَغيرتي أنَّ الحُشْرِيَّةَ وحُبَّ المَعْرِفَةِ والتَّعلُّمَ واكْتِشافَ أسْرارِ هذا العالَمِ مِنْ حَوْلِنا هِبَةٌ نَتَمَيَّزُ بِها !

حاوِلي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ حَياتِكِ طَرْحَ سُؤالٍ يُحَيِّرُكِ والبَحْثَ عَنْ إجابَةٍ لَهُ، وتَخَيَّلي كَمْ مِنَ المَعْلوماتِ سَوْفَ تَتَعلَّمينَ عَلى مَرِّ السِّنينَ ... أتَمنّى أنْ تَكونَ حَياتُكِ مَديدَةً، وحُبُّكِ لِلْمَعْرِفَةِ أكْبَرَ!

مَعَ أطْيَبِ التَّمنّياتِ،

جَدَّتُكِ.

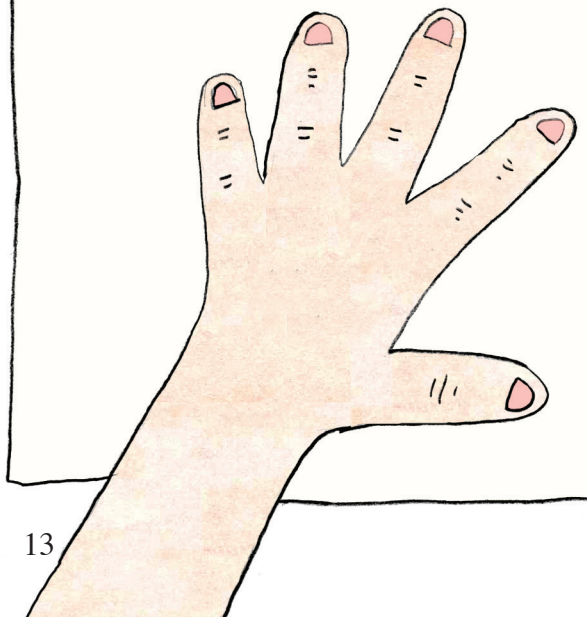

قَرَأْتُ رِسالَةَ جَدَّتي القَصيرَةَ، وفَكَّرْتُ كَثيرًا. فَجَدَّتي الّتي تَعْرِفُ كَمْ يَسْتَهويني ما لا أعْرِفُهُ لَطالمَا شَرَحَتْ لي أنَّ الفُضولَ والتَّدَخُّلَ في ما لا يَعْنيني يُضَيِّعُ وقْتي ولا يُفيدُني. أمّا أنْ أكونَ حُشْرِيَّةً تَسْعى وراءَ الاكْتِشافِ والعِلْمِ والمَعْرِفَةِ، تُلاحِظُ، تُراقِبُ، تَسْتَفْسِرُ وتَسْألُ عَمّا لا تَعْرِفُهُ، فَهذا أمْرٌ رائِعٌ وسِرٌّ لِلنَّجاحِ والتَّقَدُّمِ!

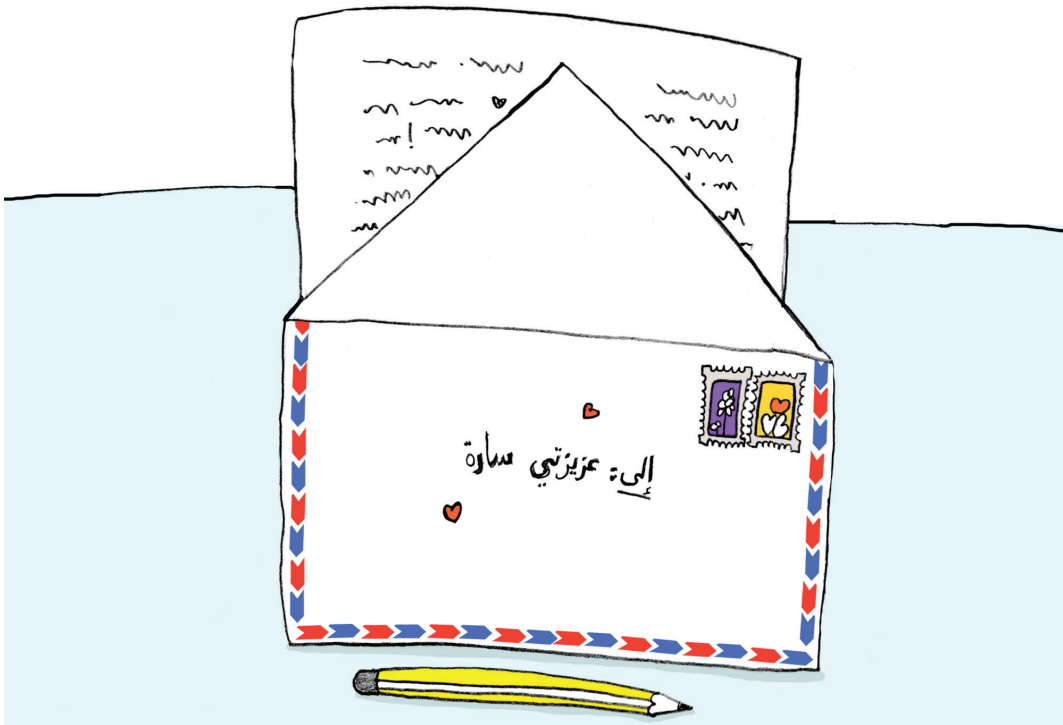

رَكَضْتُ إلى غُرْفَةِ أُمّي لِأسْألَها عَنْ هَدِيَّتي. أخَذْتُ مَوْسوعَةَ الكُتُبِ وغَرِقْتُ في القِراءَةِ ! كَمْ مِنَ الأخْبارِ قَرَأْتُ، وكَمْ مِنَ التّساؤلاتِ وجَدْتُ حُلولًا لَها.

بَعْدَ اليَوْمِ أهَمُّ سِرٍّ أُحِبُّ أنْ أشارِكَهُ مَعَ أصْدِقائي هُو مَوْسوعَةُ الأسْرارِ خاصّتي، طَبْعًا إضافَةً إلى أسْرارٍ أُخْرى لا يُمْكِنُني إطْلاعَكُمْ عَلَيْها!...